١٠ ابْنُ البِيْطَارِ.. سَيخُ العشَّابِيْنَ وسَهيدُ العِلْمِ

هو ضياءُ الدِّينِ أَبُو محمدٍ عبدُ اللهِ بن أحمد المالقيُّ النباتيُّ الملقبُ بالعشَّابِ، والمعروفُ بابْنِ البِيْطَارِ، وَكَانَ والدُه بيطريّاً حاذقاً، ومن هنا جاءَ لقبُه (ابْن البِيْطَارِ).

ولدَ في (مالقة) المدينةِ الساحليةِ الأندلسيةِ نحو عام (٥٩٣هـ ـ ١١٩٦م)، وتُوُفِّيَ في دمشقَ وعمره نحو (٥٠) عاماً في عام (٦٤٦هـ ـ ١٢٤٨م) تقريباً، بعدَ أنْ طافَ بالآفاقِ، وعملَ بجدٍّ ونشاطٍ وإخلاصٍ حَتَّى أَصْبَحَ أشهرَ عُلَمَاءِ الكيمياءِ والصيدلةِ في عصرِه، وأعظمَ عباقرةِ العربِ في عِلْمِ النباتِ.

في صغرِه كانَ يقضي معظمَ وقتِه في الغابةِ المجاورةِ لقريتِه، يراقبُ ما فيها من نباتٍ وحيوانٍ ومناخٍ، فترسَّخَ في نفسِهِ منذُ الصِّغرِ حبُّ الطَّبِيْعَةِ ومراقبةُ التنوُّعِ النباتيِّ والحيوانيِّ؛ فكانتِ الغابةُ أَوَّلَ مدرسةٍ واقعيةٍ له في العِلْمِ الَّذِيْ أحبَّهُ وعملَ على دراستِهِ طوالَ عمرِهِ.

وفي بدايةِ نشأتِه تتلمذَ ابْنُ البِيْطَارِ على يدِ عالمِ إشبيليةَ أبي العَبَّاسِ أحمدَ بن محمدٍ بن فرجٍ النباتيِّ، صاحبِ الشهرةِ العظيمةِ في عِلْمِ النباتِ، إلَّا أنَّ ابْنَ البِيْطَارِ فاقَ لاحقاً أستاذَه، بل امتازَ في أبحاثِه العِلْمِيَّةِ والتجريبيةِ والتطبيقيةِ على بَاقِي عشَّابي زمانِه.

وَكَانَ كثيرَ الرحلاتِ إلى بلادِ اليونانِ والروم، ومعظمِ بلادِ العالمِ الإِسْلاميِّ، ولم يكتفِ بقراءةِ الكُتُبِ والمصنَّفاتِ، وَكَانَ في ترحالِهِ يدرسُ النباتَ في البيئةِ الَّتِيْ تنمو فيها.

امتازَ ابْنُ البِيْطَارِ بعقليةٍ عِلْمِيَّةٍ أصيلةٍ، تميلُ إلى التَّجْربَةِ، وتؤمنُ بالمشاهدةِ والملاحظةِ والاستنباطِ، وتحرِّي الدِقَّةِ والأمانةِ العِلْمِيَّةِ في النقلِ، وكانتْ لملاحظاتِهِ القَيِّمَةِ أكبر الأثرِ في تَقَدُّمِ عِلْمِ الصيدلةِ، ولذلكَ يَقُوْلُ عَنْهُ معاصرُوهُ: «إِنَّهُ الحكيمُ الأَوَّلُ، العالمُ النباتيُّ، وعلَّامة وقتِهِ في مَعْرِفَةِ النباتِ وتحقيقِهِ واختبارِهِ».

كانَ رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرَ الترحالِ سعياً وراءَ العِلْمِ، فرحلَ إلى شمالِ أفريقيا ومراكش والجزائرِ وتونسَ ومصرَ لدراسةِ النباتِ، ووصلَ إلى مصرَ في عصرِ الملكِ (الكامل الأيوبي)، فالتحقَ بخدمتِهِ رئيساً للعشَّابِيْنَ، ولما تُوُفِّيَ الملكُ الكاملُ، استبقاهُ في خدمتِهِ ابنُهُ (الملك الصالح نجم الدينِ) وأخذهُ معه إلى دمشقَ، حَيْثُ استقرَّ في أواخرِ عمرِهِ، وشرعَ بدراسةِ نباتاتِ الشامِ وآسيا الصغرى.

مصادرُهُ العِلْمِيَّةُ:

تنوَّعتْ مصادرُهُ العِلْمِيَّةُ كما يَقُوْلُ الدَّارِسُونَ «بَيْنَ داخليَّة وخارجيَّة»، الأُوْلَى تتمثلُ في المناخِ العِلْمِيِّ الَّذِيْ عَاشَ فيه، ورحلاتِهِ الخاصَّةِ الَّتِيْ قَامَ بها، والثانيةُ تتمثلُ في التَّرْجَمَةِ والاطِّلاعِ على كتبِ اليونانيينَ وعلومِ الأوائلِ من غيرِ العربِ، والأمرُ الَّذِيْ ساعدَه على ذلكَ؛ معرفتُه بعددٍ من اللغاتِ كالفارسيةِ واليونانيَّةِ.

درسَ ابْنُ البِيْطَارِ في نشأَتِه كتبَ السَّابقينَ له دراسةً مستفِيضَةً حَتَّى أتْقَنَها تماماً، وشرحَ النُّقاطَ الغامضةَ فيها، واستفادَ إلى حدٍّ كبيرٍ مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِم، وكانتْ موضعَ تصحيحاتِه، ونقدِه في كثيرٍ من الأحيانِ.

ويرَى البَاحِثُونَ أنَّ قوةَ ذكاءِ ابْنِ البِيْطَارِ، وصبرَه على التَّعَلُّمِ، إلى جانبِ المناخِ العِلْمِيِّ

والطبيِّ والفكريِّ المزدهرِ الَّذيْ تَميَّزَ به عصرُهُ هو الَّذِيْ أدَّى إلى نبوغِهِ العِلْمِيِّ، ويُؤَكِّدُونَ أنَّ ذَلِكَ يَبدو وَاضِحاً في كثيرٍ منَ المُؤَلَّفَاتِ الَّتِيْ كتبَها، حَيْثُ استفادَ من عُلَمَاءِ اليونانِ، كما استفادَ من عُلمائِنا العربِ السَّابقينَ الَّذِيْنَ تأثَّروا بدورِهم باليونانيينَ في مجالِ الطِّبِّ والصَّيدلةِ وعِلْمِ النَّباتاتِ الطبِّيةِ.

فَقَدْ كانَ ابْنُ البِيْطَارِ عشَّاباً وطبيباً نباتياً، تحدَّث عن النباتِ وأوصافِه، أصلِه وساقِه وورقِه وزهرِه وثمرِه، وميَّزَ بَيْنَ نباتٍ نافعٍ وآخرَ ضارٍّ، وذكرَ ما يستخلصُ مِنْهُ الدواءُ، ومتى، وكيف، وكم مقدار، وما يؤخذُ مِنْهُ للعلاج.

ويُؤَكِّدُ ابْنُ البِيْطَارِ في كتبه أَهَمّيةَ التَّداوي بالأغذيةِ الطَّبِيْعِيّةِ والنباتاتِ الطبيةِ، بدلاً من استخدامِ العقاقيرِ الكيميائيةِ الَّتِيْ لها جوانبُ ضارةٌ وآثارٌ جَانبيةٌ، ويؤيدُ الطِّبُّ الحديثُ هذا الأسلوبَ العِلْمِيَّ في النظرِ إلى الدواءِ، وأخذَ يتَّجهُ إِلَيْهِ الآنَ بعدَ أنِ اكتشفَ الآثارَ الخطيرةَ لمركباتِ العقاقيرِ، الَّتِيْ تصلحُ من جانبٍ وتضرُّ من جوانبَ أخرى.

كتابُ (الجامِع في الأدْويةِ المفردةِ):

سبقَ ابْنُ البِيْطَارِ عصرَه بِتَأْلِيْفِ كتابِ (الجامع في الأدويةِ المفردةِ)، ويُؤَكِّدُ المُتَخَصِّصونَ أَنَّهُ أَهَمُّ كتابٍ في عِلْمِ النباتِ أُلِّف في التَّارِيْخِ، حَيْثُ يُعْتَبَرُ دائرة معارفٍ حقيقيةٍ في موضوعِه، ضمت كاملَ الخبراتِ الإغريقيةِ والعَرَبِيّةِ.

ويَقُوْلُ ابْنُ البِيْطَارِ في مقدمةِ كتابِه عن سَببِ تسميتِه له بالجامعِ: «سميتُه الجامعَ لكونِه بَيْنَ الدواءِ والغذاءِ، واحتوى على الغرضِ المقصودِ مَعَ الإيجازِ والاستقصاءِ».

ويستند ابْنُ البِيْطَارِ في كِتَابِهِ هذا ـ مثل سائرِ كتبِه ـ على التَّجْرِبَةِ كمعيارٍ لصحةِ الأحكامِ،

وَكَانَ يطلق عَلَيْهَا اسم (الاختبار)، ويذكر الأدويةَ ومنافعَها ومضارَّها وإصلاحَ ضررِها، والمقدارَ المستعملَ، والبديلَ عنها عِنْدَ عدمِها.

وقد وصفَ فيه أكثرَ من (١٤٠٠) دواء بَيْنَ نباتيٍّ وحيوانيٍّ ومعدنيٍّ، منها (٣٠٠) من صنعِه، مبيِّناً الفوائدَ الطبيةَ لكلِّ واحدٍ منها، ومرتبةً ترتيباً أبجدياً.

ويَقُوْلُ مبيِّناً أمانتَه العِلْمِيَّةَ: «أسندتُ الأقوالَ إلى قائلِها، وما صحَّ عندِي بالمشاهدةِ والنظرِ، ولم أحابِ قديماً لسبقِه، ولا محدِثاً اعتمدَ غيري على صدقِه».

ويرى البَاحِثُونَ أَنَّهُ بِالرَّغْمِ مِن أنَّ معظمَ مادةِ الكتابِ كانَت تجميعاً لما اطَّلعَ عليهِ مؤلِّفُه، فإنَّ شخصيتَه ظهرتْ جليةً وَاضِحةً مِن خِلالِ منهجِهِ النَّقْديِّ الدَّقِيْقِ. فأسلوبُه العِلْمِيُّ يتميزُ بشكلٍ عام بالنزعةِ النَّقْديةِ، مَعَ التزامِ الموضوعيةِ والنزاهةِ.

وحددَ أسسَ منهجِهِ العِلْمِيِّ في ستةِ أهدافٍ وهي: استيعابُ القولِ في الأدويةِ المفردةِ والأغذيةِ المستعملةِ على الدَّوامِ والاستمرارِ، والمقصودُ بِذَلِكَ جمعُ مادتِه العِلْمِيَّةِ الطبيةِ الخاصةِ بلغاتِها المُخْتَلِفةِ، والأمانةُ العِلْمِيَّةُ عِنْدَ النقلِ، والتحققُ من صحةِ الأدويةِ، والاعتمادُ على الملاحظةِ والمشاهدةِ، والاختبارُ وإجراءُ التَّجَاربِ اللازمةِ للأدويةِ الَّتِيْ استعانَ بها في علاجِه للأمراضِ.

ووصفَ الأعشابَ والنباتاتِ، كما أَنَّهُ قَامَ بتحضيرِ الأدويةِ واستخدامِ النسبةِ والكميةِ في إعدادِ الكمياتِ اللازمةِ للعلاجِ، وحذَّرَ من الإفراطِ في أخذِ العلاجِ، أو الابتعادِ عن أخذِ الكميةِ المحددةِ.

تُرجمَ هذا الكتابُ إلى عدَّةِ لغاتٍ، وطبعَ بعدَّةِ طبعاتٍ، ودرِّسَ في معظمِ الجامِعاتِ

الأَوْرُوبِّيَّةِ حَتَّى عُهود متأخِّرة. وفي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ طُبِعَ طَبعاتٌ عَديدةٌ أَوَّلُها في مصرَ عام (١٨٧٤م) في أربعةِ أجزاء، ويوجدُ العديدُ من المَخْطوطاتِ لِهذا الكِتابِ، موزَّعةٍ في عدَدٍ من مكْتباتِ العالمِ ومَتاحِفِها.

أَخْلاقهُ وصفاتُهُ:

كانَ ذكيَّ الفؤادِ، يتميَّزُ بحافظةٍ قَوِيَّةٍ قَادِرةٍ على الاستيعابِ الدَّقِيْق والإلمامِ الذكيِّ، يحددُ كلَّ مسألةٍ عِلْمِيَّةٍ في موضعِها، ويضعُ الخطوطَ على ما قبلَها وما بعدَها من مسائلَ، وينسبُ كلَّ قولٍ إلى صاحِبِهِ، ويوضحُ الفروقَ بَيْنَ الأقوالِ المُخْتَلِفةِ في سهولةٍ، ثُمَّ يحكمُ وينقدُ ويختارُ الَّذِيْ يتَّفقُ مَعَ العَقْلِ والمَنْطِقِ.

وَكَانَ كريمَ الخلقِ حسنَ العشرةِ، مُتَوَاضِعاً، لم يغرِهُ عِلْمُه ولا حظوتُه عِنْدَ الملوكِ، وتلكَ صفاتٌ قلَّما تتَهيَّأُ إلا للقليلِ مِنَ العُلَمَاءِ ذوي المواهبِ الأصيلةِ في العُلُومِ.

وَقَالَ عَنْهُ تلميذُه ابنُ أبي أُصَيْبِعَةَ: «ورأيتُ أيضاً من حسنِ عُشرتِهِ، وكمالِ مروءتِه، وطيبِ أعراقِه، وجودةِ أَخْلاقه، وكرمِ نفسِه؛ ما يفوقُ الوصف ويُتعجبُ منه».

وَكَانَ يردِّدُ دائماً: «إنَّ أعمالَ القدماءِ غيرُ كافيةٍ، وغامضةٌ من أجلِ تقديمِها للطُّلابِ، لِذَلِكَ يجبُ أنْ تصحّحَ وتكمَّلَ حَتَّى يَسْتَفِيْدوا منها أكثرَ ما يمكنُ».

ومنْ صفاتِ ابْنِ البِيْطَارِ، كما جاءَ على لسانِ ابنِ أَبِي أُصَيْبِعَةَ، أَنَّهُ كانَ صاحبَ أَخْلاق ساميةٍ، ومروءةٍ كامِلةٍ، وعلمٍ غَزيرٍ. وَكَانَ يملكُ قوَّةَ ذاكرةٍ عجيبة، أعانتهُ على تصنيفِ النَّباتاتِ الَّتِيْ قرأَ عَنها، واستَخلصَ منها الأدويةَ المتنوِّعةَ، ولم يُغادِرْ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ طبَّقَها، بعدَ تحقيقاتٍ طويلةٍ.

حَياتُهُ العِلْمِيَّةُ ورحلاتُهُ:

نشأَ ابْنُ البِيْطَارِ في بيتِ عِلْمٍ ودينٍ، وَكَانَ والدُه طبيباً بيطريّاً حاذقاً، تَعَلَّمَ المبادئَ الأَوَّلِيَّةَ في العُلُومِ في مالقةَ، وظهرتْ مواهبُهُ الفطريَّةُ وقوةُ ذكائهِ وميولُهُ الطَّبِيْعِيّةُ للبحثِ والتَّنقيبِ منذُ صغرِه.

تتلمذَ على عدَّةِ عُلَمَاءَ نباتٍ، واطَّلعَ على كلِّ ما تُرْجِمَ من كتبِ اليونانيينَ وعلومِ الأوائلِ من غيرِ العربِ، وساعدَه على ذَلِكَ معرفتُه بعددٍ من اللُّغاتِ كالفارسيةِ واليونانيةِ.

وكانتْ نفسُ ابْنِ البِيْطَارِ تواقةً للعِلْمِ دائماً، فبعدَ أنْ تمكَّنَ في الأندلسِ من عِلْمِ النَّباتِ، غادرَ بلادَه ـ بلا عودَة ـ ورحلَ في بدايةِ العشرينياتِ من عمرِه في رحلةٍ عِلْمِيَّةٍ طويلةٍ، متحمِّلاً المشاقَّ في سبيلِ ذلكَ؛ ومرَّ في رحلتهِ بالمغربِ الأقصَى فالجزائر فتونس، ثُمَّ طرابلس وبرقة، كما زارَ اليونانَ، ووصلَ به المطافُ إلى أقصَى بلادِ الرُّومِ، وآسيا الصُّغرَى، وبلاد فارس والعراق، ثُمَّ بلاد الشَّامِ، وزارَ أيضاً الحجازَ وغزَّةَ والقدسَ وبيروتَ ومصرَ.

ولم يكنْ مرورُه بتلكَ البلدانِ عابراً، بلْ كانَ يقيمُ بكلِّ بلدٍ مدةً يبحثُ فيها عن النَّباتاتِ، ويدرسُ كلَّ نباتٍ في منبتهِ، ويدرسُ الأَرْضَ الَّتِيْ تنبتُهُ، وَكَانَ يصطحبُ معهُ رسَّاماً يرسمُ له كلَّ نباتٍ بدِقَّةٍ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ مَعَ عُلَمَاءِ تلكَ البلادِ فيأخذُ عنهم ويتدارسُ معهم مسائلَ النَّباتِ.

وقدِ اجتمعَ مَعَ عُلَمَاءِ تلكَ البلادِ، وتدارسَ معهمْ أنواعَ النَّباتِ، وخواصَّه وفوائده؛ إذْ لم يكتفِ بقراءةِ الكُتُبِ والمصنَّفاتِ الَّتِيْ ألَّفوها، وحرصَ على الاطِّلاعِ على النَّباتِ في منابتهِ، والأَرْض الَّتِيْ تُنْبِتهُ، وعنْ ذَلِكَ يَقُوْلُ ابنُ أبي أُصَيْبِعَةَ: «شاهدتُ معه في ظاهرِ دمشقَ كثيراً من النَّباتِ في مواضِعِهِ».

وتهيَّأتْ له من ذَلِكَ كلِّهِ مَعْرِفَةٌ معمَّقةٌ بالنَّباتِ الموجودِ في البيئةِ العَرَبِيَّةِ، وفي آسيا الصغرى، وكلِّ المناطقِ التي مرَّ بها. وصارَ كما يَقُوْلُ البَاحِثُونَ «أوحَد زمانِهِ وعلامة وقتِه في تحقيقِ النَّباتِ ومواضعِ منابتِهِ ونعتِ أسمائِه على اختلافِها وتنوُّعِها».

وفاتُهُ:

تُوُفِّيَ ابْنُ البِيْطَارِ رَحِمَهُ اللهُ في دمشقَ نحو سنة (٦٤٦هـ ـ ١٢٤٨م)، وعمرُه يقاربُ الخمسينَ عاماً، وماتَ وهو يقومُ بأبحاثِه وتجاربِه على النَّباتَاتِ، وَكَانَ سببُ وفاتِه غريباً، حَيْثُ ماتَ مسموماً بمادَّةٍ كانَ يقومُ بتجربتِها؛ إذ تَسرَّبَ إِلَيْهِ السمُّ في أثناءِ اختبارِه لنبتةٍ يُحَاوِلُ صنعَ دواءٍ منها، فكانَ بحقٍّ شهيدَ العِلْمِ، رحمه الله رحمةً واسعةً.

آراءُ عُلَمَاءِ الغربِ والشَّرقِ فيه:

شهدَ العديدُ مِنَ العُلَمَاءِ شرقاً وغرباً بعَبْقَرِيّةِ ابْنِ البِيْطَارِ العِلْمِيَّةِ؛ وفيما يلي بعض ما جمعناهُ من كلماتٍ وأقوالٍ:

ـ تَقُولُ المُسْتَشْرِقةُ الألمانيةُ زيجريدهونكه: «إِنَّ ابْنَ البِيْطَارِ من أعظمِ عباقرةِ العربِ في عِلْمِ النَّبَاتِ».

ـ ويصفُهُ المُسْتَشْرِقُ ماكس مايرهوف فيَقُوْلُ: «إِنَّهُ أعظمُ كاتبٍ عربيٍّ خُلِّدَ في عِلْمِ النَّبَاتِ».

ـ ويعترفُ جورج سارتون بقَيمَةِ كتابِه (الجامع في الأدوية المفرَدَة) قائلاً: «إِنَّهُ خيرُ ما أُلِّفَ في هذا الموضوعِ في القُرُوْنِ الوسطَى، بل إِنَّهُ لأضخمُ نتاجٍ من نَوعهِ حَتَّى منتصف القرن السادس عشر».

ـ قَالَ راملاندو في كِتَابِهِ (إسهام عُلَمَاءِ العربِ في الحضارةِ الأَوْرُوبِّيَّةِ): «إِنَّ إسهامَ ابْنِ البِيْطَارِ في مجالِ عِلْمِ النَّبَاتِ يفوقُ إنتاجَ السابقينَ حَتَّى القرن العاشر الهجريِّ».

ـ ويَقُوْلُ الدوميلي في كِتَابِهِ (العِلْم عِنْدَ العربِ وأثره في تَطَوُّرِ العِلْمِ العالميِّ): «إِنَّ ابْنَ البِيْطَارِ كانَ مَشْهُوْراً بأَنَّهُ أعظمُ النَّبَاتيِّينَ والصيدلانيِّينَ في الإِسْلامِ، مَعَ العِلْمِ أنَّ مُؤَلَّفَاتِهِ تعتمدُ على كتبِ السَّابقينَ له، فَقَدْ سجَّلتْ في جملتِها تَقَدُّماً بعيدَ المدَى».

ـ ويَقُوْلُ محمد زهير البابا في كِتَابِهِ (تاريخ وتشريع وآداب الصيدلةِ): «إِنَّ كتابَ الجامعِ أَهَمُّ مؤلَّفٍ في العقاقيرِ ظهرَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ حَتَّى زمنه».

ـ أَمَّا جورج قنواتي في كِتَابِهِ (تاريخ الصيدلةِ والعقاقيرِ في العهدِ القديمِ والعصرِ الوسيطِ) فيَقُوْلُ: «إِنَّ القرنَ الثالث عشر الميلاديَّ للأندلسِ شهدَ ظهورَ أكبر مَوْسُوعَةٍ خاصةٍ بالأدويةِ المفردةِ وصلتْنا من القُرُوْنِ الوسطَى، وهي الكتابُ الجامعُ لمفرداتِ الأدويةِ المفردةِ لابْنِ البِيْطَارِ».

ـ وقديماً امتدحَ ابنُ أبي أُصَيْبِعَةَ أستاذَه ابْنَ البِيْطَارِ قائلاً عنه: «كنتُ أجدُ من غزارةِ عِلْمِهِ ودرايتِه وفهمِه شيئاً كثيراً جداً، وكنتُ أراجعُ معه كثيراً من الكُتُبِ، فلا أجدُه يقلِّدُ شيئاً مما فيها، وأعجبَ من ذَلِكَ أيضاً أَنَّهُ كانَ ما يُذكرُ دواءٌ إلا وعيّنَ في أيِّ مقَالَةٍ هو من كتاب، وفي أيِّ عددٍ هو من جُملةِ الأوديةِ المذكورةِ في تلكَ المقَالَةِ».